

صلة الأدب بالحقيقة والواقع

وقديماً أخضع أفلاطون الأدب أو الشعر لميزان الحقيقة فشالت موازينه في نظره وأستحق أن ينبذ وألا يدخل محترفوه جمهوريته المثالية . إن الحقيقة كائنة في العالم ، يتمثلها العقل في صورة مجردة ، وتمينه الفلسفة على هذا التمثل . وتحقق لتلك الحقيقة صور كثيرة مختلفة على الأرض ، يحققها الصانع ومن في مرتبتهم . وأخيراً يأتي الشعراء ليصوروا هذه الصور فيخرجون صورة أخرى للحقيقة هي صورة الصورة أو هي الحقيقة بعد أن بعدت عن أصلها المجرد درجتين في سبيل إخراجها . فلم كل هذا التعب والحقائق قد وجدت مجردة ومصورة ؟ وما الفائدة من تصور صور للحقيقة هي في الدرجة الثانية ما دامت الصور الأولى أمام ناظرنا نراها ؟ لذلك أجل أفلاطون الفلسفة لأنها هي التي تصور الحقائق المجردة ، واحتقر الشعر لأنه يخرج لنا صوراً ناقصة لتلك الحقيقة المجردة . وباليته يصور تلك الصور في دقة وأمانة . كلا إن الشعر يدعى لنفسه الحق في أن يخرج هذه الصور على نحو ما يريد ، ولا يطابق هذا النحو الواقع في صدق وأمانة أبداً ، إنه دائماً محرف مشوه .

وقام أرسطو يدافع عن الأدب أمام الفلسفة ويرد أستاذه في استحياء عن هذه الدعوة التي حارب بها الشعراء وشعراء عصره خاصة . فأوضح في كتابه الشعر أن الأدب أو الفن عامة لا يدعى لنفسه تلك الغاية التي تدعيها الفلسفة لنفسها ، إنه لا يستكشف حقيقة ولا يميظ اللثام عن خفي . إنه يعمل في ميدان آخر يختلف كل الاختلاف . إنه ينقل الحقائق بطريقته لا ليصورها للناس في أمانة ودقة ، فهو لا يريد لهم أن يتمثلوا تلك الصور ، وإنما يريد أن يصل بتلك الصور كما يرسمها هو إلى أن تهتر نفوس الناس لتلك الحقائق هزات جديدة فيتمثلوها أعمق مما تمثلوها وأصدق ، ويتأثروا بها في مزاجهم وحياتهم إن أمكن . إن الشعر المسرحي كما يقول أرسطو لا يريد أن يصور الناس كما هم ، فذلك مهمة

التاريخ لكنه يريد إما أن يصورهم شراً مما هم وذلك في المسرحية الهزلية ، أو خيراً مما هم وذلك في المأساة . ومن طريف ما يسرد برهانا على أن الشعر المسرحي بعيد عن أن يصور الناس كما هم ، زعمه أننا لا نتأثر بالناس الذين نصادفهم في الحياة كما نتأثر بالأبطال الذين نراهم على المسرح . إننا نأسى لآلام البطل ونحزن لاتراحه ، ونفرح إذا فرح وننتشى لانتصاراته . والحياة لا يمكن أن تعدنا بهؤلاء الذين تظل عيوننا معلقة بهم نزقب حركاتهم في شغف وننتظر أحكام القدر عليهم في شوق ولهفة . إن أبطال المسرح قوم تلذ لنا حياتهم ، ولا تعدنا الحياة بمن تشغلنا حياتهم ولا تربطنا بهم صلات . إننا نشغف بأبطال المسرح لا لشيء إلا لجمال حياتهم التي يحيون ، ولطرافة ما يحدث لهم من أحداث بل لما يتصف به الأبطال وما يأتون به من أعمال عظام .

ترى أنخضع نحن الأدب اليوم لنفس هذا الميزان فنفكر في الحقيقة التي يصورها أدبنا الحديث ومقدار بعدها وانحرافها أو قربها وأماتها لهذا الأصل الذي نصف ، لهذا الأصل الواقعي أو الأصل الفلسفي ؟ لقد شغلنا نقد الآثار الأدبية نفسها ، إن شغلنا شيء في النقد ، عن تصور تلك النظريات العامة . وكما شغل أسلافنا بنقد البيت : ألفاظه ومعانيه وما يمكن أن يكون فيه من جديد أو قديم مكرر معاد ، فإن تعدوا ذلك فللكلام عن الشاعر نفسه وما قد حدث له ، فقد شغلنا نحن أيضا بنفس هذا النوع من النقد وحده ، نقد الآثار في أفق ضيق ، نقداً لا يعنينا أن نصفه الآن ، ولكن الذي يعنينا هو أننا لم نفكر بعد في هذه المسائل الفلسفية التي شغلت بال النقد في أوروبا قديماً وحديثاً ، فجعلت أفق تفكيرهم النقدي والأدبي أوسع وأعمق ، وجعلت الأيام تقدمهم جلالات وقوة .

إن هذا الموضوع وحده قد شغل من تأليف النقد قديماً وحديثاً صفحات وصفحات كلها متعة وكلها تفكير نقاد عميق . لقد قال النقد فيه كثيراً في كل عصر كانت لهم فيه صحوة ، لا يبيغون بقولهم الوصول إلى حقائق حاسمة أو إلى وضع أسس ثابتة لأحكام النقد ، وإنما يبيغون الكلام للكلام نفسه انه يفتح في حد ذاته آفاقاً واسعة من التفكير الفني الخصب ، ويوحى إلى الأدباء والمتأديين على السواء تأثيرات جديدة وإحساسات لم يألفوها . وأخيراً وهذا هو الأهم إنه يلقى على الآثار الأدبية قديمها وحديثها أضواء وظلالا ليس لقاربها بها عهد

فيرى ما لم ير ويفطن لما لم يفطن إليه من قبل ، وإن يكن قد مرّ به النص الأدبي مرّات ومرّات .

ولقد عقد الكاتب الانجليزي المعاصر ألدوس هكسلي Aldous Huxley فصلين في كتابه « الموسيقى في الليل » عن علاقة الأدب بالحقيقة هما من أجسن ما كتب حديثاً في هذا الموضوع .

أما الفصل الأول فقد أبان فيه الفرق بين الأدباء في القدرة على الكشف عن الحقيقة كاملة ، وخرج من ذلك أن كل أديب مستحق أن يُقرأ لا بد كاشف عن جزء من الحقيقة ولكن الحقيقة الكاملة لا يكشف عنها إلا كاتب عبقرى ويجدر بنا منذ الآن أن نفرق بين الحقيقة التي يتحدث عنها هكسلي ، وتلك التي كان يتحدث عنها أفلاطون وأرسطو . فهذان أرادا الحقيقة الفلسفية أو الحق وذلك يريد الواقع ليس غير . وضرب للحقيقة أو للواقع كاملاً غير محرف مثلاً طريفاً من أوديسا هوميروس . فلقد جاء في الكتاب الثاني عشر من الأوديسا أن البطل أوديسيوس ما كاد يرفع يده عن مؤخرة السفينة ويدير ظهره حتى رأى ستة من الأبطال أعوانه وأصدقائه يرفعهم غول الساحل من السفينة في الهواء ليدخل بهم مغارته ويلتهمهم . نعم ! لقد رأهم بعينه ستة من خيرة الرجال والأبطال يستصرخونه وينادونه ويستغيثون به ، وظل أعوانه الآخرون في السفينة ينظرون في خوف ويأس حتى توارى الستة عن أنظارهم في مغارة الغول . ويقول أوديسيوس إن هذا المنظر كان أبشع ما صادفه في رحلاته عبر البحار والمضايق وأفظعه . ولكن الخطر زال ونزل البطل وأعوانه إلى الشاطئ الضملى وأخذوا يعدّون عشاءهم ، يقول هوميروس يعدّون الطعام في صنعة وإتقان ، وينتهي الكتاب الثاني عشر بقول الشاعر : « لما سدوا حاجات الجوع والعطش ذكروا إخوانهم الأعزاء فبكوا عليهم ، ثم غلبهم النوم وهم ما يزالون يبكون » . فهؤلاء الأبطال الأعزاء على إخوانهم قد التهمهم الغول على مرأى منهم ومسمع ، ومع ذلك لما نزلوا إلى الشاطئ أخذوا يعدّون طعامهم ويُعدّونه في إتقان . فالإنسان إذا اعتاد إتقان عمل آلى فلا بدّ هو متقنه في أشدّ حالات الحزن . ثم أكل الأبطال عشاءهم . فلما شبعوا ذكروا إخوانهم فبكوا . إن الحزن بالنسبة للجائع ترف لا يقوى عليه . إن الجوع والعطش أقوى أثراً في الجسم من الحزن مهما يكن بالغاً . وللنوم على المسافرين المتعبين سلطان . إنهم

قد عادوا من رحلة ملئت أهوالاً وأخطاراً، فإذا النوم يغلبهم، وإذا دموعهم تفرق في بحر من النوم القوي الجبار. هذه هي الحقيقة الكاملة كما يقول هكسلي: حاجات البدن المادية ثم ترف العواطف والاحساسات. إن البكاء على الأبطال والأخوان وإن ماتوا مستصرخين يحاولون الخلاص من قبضة أسنان الغول لا يقوى عليه جائع متعب حتى يشبع، ولا بد من الراحة حتى يستطيع الإنسان أن ينعم بترف البكاء على الأخوان. إنهم قليلون هؤلاء الذين يستطيعون أن يصوروا الواقع كاملاً كما صوره هوميروس.

ويتدرج هكسلي من ذلك إلى أن أنواعاً بعينها من الأدب تلائمها هذه الحقائق الكاملة، بينما أنواع أخرى تأتي إلا الحقائق المصفاة الممتازة كما يسميها هو. ففي قصة أو ما يشبه القصة من ملحمة شعرية أو نحو ذلك يستطيع الشاعر العبقري أن يصور الحقيقة كاملة، ولكن في المأساة حيث حدود المسرح والزمن والنظارة لا يستطيع المؤلف أن يصور الواقع كاملاً. إن هؤلاء الأبطال الذين فقدوا إخوانهم لو أنهم كانوا أبطالا على المسرح لا كتفى الشاعر بعد أن قص اغتيال الغول لأخوانهم أو صوره ثم جعلهم يبكون بكاء مرثياً، بكاء يليق بالأبطال باكين ومبكيًا عليهم بكاء يليق بالحادث الفظيع ويؤثر في النظارة أقوى تأثير وأسرع بل أغنفه. ولكنهم لو تركوا على المسرح يتقنون إعداد عشائهم ثم يملأون بطونهم وبعد ذلك يذكرون الأخوان لا نصرف النظارة عنهم وسخطوا على شراحتهم ودموا ببلادة حسهم ولم يتأثروا بهم في شيء. إن المأساة من الأنواع الأدبية التي تحتاج إلى كل الوسائل ليكون التأثير عنيماً سريعاً. لذلك نراها ترفع دائماً عن الواقع العادي، ترفع عن الحقيقة كاملة لتذكر حقيقة مركزة مصفاة، محرفة ولكنها قوية، مبالغاً فيها ولا شك ولكنها سريعة التأثير. إن أبطال المسرح قوم كالبشر ولكنهم فوق مستواهم، هم كالبشر كما يود البشر أن يكونوا، مثاليون فيما يأتون ويحسون، فإذا نزلوا لمستوى الإنسان العادي فهم لا ينزلون إليه كثيراً مهما كان اتجاه العصر أو اتجاه المؤلف نفسه.

ويختم هكسلي هذا الفصل بأنه يلاحظ أن كتاب اليوم يميلون في تشبعهم بحب الحق والحقيقة إلى تصوير الحقيقة الكاملة أو الواقع بمخاديفه. وهم بذلك يبعدون عن جو المأساة الحق. ولذلك ضعف الفن المسرحي في هذه الأيام ضعفاً ظن كثيرون من أجله أن المسرح يُختَضَر. ولكن الفن المسرحي لن

يموت أبداً . إن الإنسان محتاج إلى النوعين من تصوير الحقيقة أو الواقع ، محتاج إلى التصوير التفصيلي الدقيق ، وإلى التصوير المركز المصنّف . هو محتاج إلى الحقيقة المثالية وإلى الحقيقة الواقعة . أما الأول فلائها وحدها بعنفها وقوة تركيزها تستطيع أن تهز أعصابه هزة قوية لتحث هذا الاتزان في العواطف الذي لاحظته أرسطو في كتاب الشعر ، وجعل مهمة المأساة تكاد تكون مقصورة عليه : هذا التصريف للشعور والإحساسات وهذا التطهير لها فتتجدد حيوية الإنسان العصبية بعد أن تصرف منها مافسد وتقوى فيها ما صلح فازنت أعصاب الجسد وأحس الإنسان لذلك الاتزان راحة هادئة هي ما يبعثه المسرح أو ما يجب أن يبعثه في نفوس النظارة . وأما احتياجه إلى الحقيقة الواقعة فلائها هي التي تصور له الحياة على حقيقتها وهي التي تضيف إلى إحساسه بالحياة إحساساً أدق وأعمق ، وتجعل حياته الحسية غنية بفيض مما يحس هو في الحياة وما ينقل إليه الشعراء من إحساسهم لها أيضاً .

وأما الفصل الآخر الذي نجاهه في نفس الكتاب فقد حاول فيه هكسلي أن يقسم الحقيقة البينة الواضحة إلى قسمين : حقيقة كبرى وحقيقة تافهة . يقول : ليست كل الحقائق البينات حقائق كبرى أو هامة . فالحياة الإنسانية فانية ، تلك حقيقة بديهية بينة . ومدينة نيويورك مزدحمة بناطحات السحاب والسكان ، تلك أيضاً حقيقة بديهية بينة ، ولكن الأولى حقيقة هامة أو كبرى بينما الأخرى حقيقة تافهة . والأدب لا يعنى إلا بالحقائق الكبرى أي الحقائق التي لها أثر في حياة الإنسان وإحساسه . فكون الضوء يسير كذا ميلاً في الثانية ، وكون الملكة فكتوريا حكمت كذا عاماً ، كل هذه الحقائق على ما لها من خطر يستطيع الإنسان أن يعيش وأن يموت فلا يحس لحقيقتها أي أثر في حياته . فليدع الناس قروناً قبل أن يعرفوا عن الضوء إلا بريقه فاضرم ذلك في شيء ولا جعلهم يفكرون فيه . ولكن الإنسان منذ خلق أو منذ مات الإنسان الأول قد عرف أن الحياة فانية ، وأثرت تلك الحقيقة في حياته أيما أثر ، وهي مازال تؤثر فيه إلى اليوم .

يقول هكسلي : ولكن أدباء فرنسا في هذا العصر الحديث مجتوا اعتماد الأدب على هذه الحقائق الكبرى ، وتعمّد الكتاب إظهارها في صور واضحة سافرة لتؤثر في الجماهير أثرها ، فأنصرفوا عنها تجديداً إلى تصوير الحقائق التافهة التي لها

أثرها الوقتي السريع . وتبع أدباء فرنسا أدباء أوروبا عامة في هذا ، إما لأنهم خضعوا لنفس المؤثرات وإما لأنهم أحبوا ما كتب أدباء فرنسا المحدثون فقلدوه . ولكن هذا الاتجاه خطر على الأدباء لأنه اتجاه نحو إرضاء ميول الشعب على حساب الفن . لقد ميج الشعب اللب على هذا النغم ، مجوا سماع الحقائق السافرة تلقى إليهم واضحة مبالغاً فيها ، والشعب دائماً ملول يريد جديداً . وجبن الأدباء عن إظهار هذا القديم الأزلي في ثوب شيق جذاب خوفاً من الاخفاق لصعوبة المهمة التي يواجهها الأديب في ذلك . وظهر هذا الجبن واضحاً في فرارهم من الشبح الخفيف شبح الحقائق البديهية البينة السافرة . وجعل الأدباء يقولون لانفسهم مسوِّغين عملهم إن الطبيعة الإنسانية قد تغيرت ، فرجل اليوم غير رجل القرون الماضية لكثرة ما قد خضع له من مؤثرات عنيفة جارفة في هذا القرن الأخير . ولكن هكسلي يسأل أحقاً قد تغير الإنسان ؟ أم إن هذه الحقائق لازالت وحدها هي الحقائق التي يجب أن يعتمد عليها الأدب الذي يزعم لنفسه الخلود . واجهوا الوحش ولا تفرّوا منه أيها الأدباء . واجهوا هذه الحقائق التي كررت وبولغ فيها حتى مل الجمهور سماعها ، وقولوها في نغم جديد وصوت آخر وروح حتى تنشئوا أدباً خليقاً بالخلود . أما الفرار من الميدان والاعتماد على مزاعم كاذبة فهذا هو السر في كثرة هذا الأدب التافه الذي يعيش عليه الناس في هذا العصر طلباً للجديد ولو كان الجديد تافهاً .

أيكون هكسلي على حق ؟ أيكون هذا التعليل هو التعليل الصحيح لما نحن فعلا من قلة الآثار الأدبية الخليقة بالخلود في هذه الأيام ؟ إن الأحكام على الأدب المعاصر قلما كانت أحكاماً صائبة . فلنترك للزمن حكمه على هذا الادب الحديث الذي نقرأ ولكن يكفى هكسلي أنه جعلنا نقف وسط اندفاع الدائرة لنتساءل ، فلعل في تلك الوقفة استجماما ولعل فيها نظرة إلى الماضي تقييد في المستقبل . بل يكفيه أنه جعلنا نفكر في موضوع جديد ؛ فليس أغنى للأدب من التفكير في موضوع جديد .